

تفسير البحر المحيط

@ 420 @ يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرج من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف ، فاجعله آمناً انتهى . ودعا إبراهيم أولاً بما هو على طاعة الله تعالى ، وهو كون محل العابد آمناً لا يخاف فيه ، إذ يتمكن من عبادة الله تعالى ، ثم دعا ثانياً بأن يجنب هو وبنوه من عبادة الأصنام . ومعنى واجنبي وبنى : أدمني وإياهم على اجتناب عبادة الأصنام . وأراد بقوله : وبنى أولاده ، من صلبه الأقرباء . وأجابه الله تعالى فجعل الحرم آمناً ، ولم يعبد أحد من بنيه الأقرباء لصلبه صنماً . قال سفيان بن عيينة : وقد سئل ، كيف عبدت العرب الأصنام ؟ قال : ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً وكانوا ثمانية ، إنما كانت لهم حجارة ينصبوها ويقولون : حجر ، فحيث ما نصبوا حجراً فهو بمعنى البيت ، فكانوا يدورن بذلك الحجر ويسمونه الدوار انتهى . .

قال ابن عطية : وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ، ومن حصل في رتبته فكيف يخاف أن يعبد صنماً ؟ لكن هذه الآية ينبغي أن يقتدي بها في الخوف وطلب الخاتمة . وكرر النداء استعطافاً لربه تعالى ، وذكر سبب طلبه : أن يجنب هو وبنوه عبادة الأصنام بقوله : إنهن أضللن كثيراً من الناس ، إذ قد شاهد أباه وقومه يعبدون الأصنام . ومعنى أضللنا : كنا سبباً لإضلال كثير من الناس ، والمعنى : أنهم ضلوا بعبادتها ، كما تقول : فتننتهم الدنيا أي : افتتنوا بها ، واغترروا بسببها . وقرأ الجحدري ، وعيسى الثقفي : واجنبي من أجنب ، وأنت الأصنام لأنه جمع ما لا يعقل يخبر عنه أخبار المؤنث كما تقول : الأجداع انكسرت . والأخبار عنه أخبار جمع العاقل المذكر بالواو ومجاز نحو قوله : فقد ضلوا كثيراً . فمن تبعني أي : على ديني وما أنا عليه ، فإنه مني . جعله لفرط الاختصاص به وملاسته كقوله : (من غشنا فليس منا) أي ليس بعض المؤمنين تنبيهاً على تعظيم الغش بحيث هو يسلب الغاش الإيمان ، والمعنى : أن الغش ليس من أوصاف أهل الإيمان . ومن عصاني ، هذا فيه طباق معنوي ، لأن التبعية طاعة فقوله : فإنك غفور رحيم . قال مقاتل : ومن عصاني فيجادون الشرك . وقال الزمخشري : تغفر لي ما سلف من العصيان إذا بدا لي فيه واستحدث الطاعة . قال ابن عطية : ومن عصاني ظاهره بالكفر لمعادلة قوله : فمن تبعني فإنه مني ، وإذا كان كذلك فقوله : فإنك غفور رحيم معناه حين يؤمنوا ، لأنه أراد أن الله يغفر لكل كافر ، لكنه حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب صلى الله عليه وسلم) . وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : {

وَإِن تَعْفِرْ لَهُمْ فَاِزْكُفَاِ زَكَّ اَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ } . . .
 { رَبَّنَا اِنَّا اَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِيْ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
 بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوْا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْهُ اَفْئِدَةً مِّنَ
 النَّاسِ تَهْوِيْ اِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُوْنَ }
 : كُرر النداء رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل ، والالتجاء إلى اﷻ تعالى . وأتى بضمير
 جماعة المتكلمين ، لأنه تقدم ذكره . وذكر بنيه في قوله : واجنبنني وبنى ، ومن ذريتي هو
 إسماعيل ومن ولد منه . وذلك هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها سارة ، فروى أنه ركب
 البراق هو وهاجر والطفل ، فجاء في يوم واحد من الشام إلى مكة ، فنزل وترك ابنه وأمه
 هنالك ، وركب منصرفاً من يومه ذلك ، وكان هذا كله بوحى من اﷻ تعالى ، فلما ولي دعا بما
 في ضمن هذه الآية . وأما كيفية بقاء هاجر وما جرى لها ولإسماعيل هناك ففي كتاب البخاري
 والسير وغيره . ومن للتبعيض ، لأن إسحاق كان في الشام ، والوادي ما بين الجبلين ،
 وليس من شرطه أن يكون فيه ماء ، وإنما قال : غير ذي زرع ، لأنه كان علم أن اﷻ لا يضع
 هاجر وابنها في ذلك الوادي ، وأنه يرزقها الماء ، وإنما نظر النظر البعيد فقال : غير
 ذي زرع ، ولو لم يعلم ذلك من اﷻ تعالى لقال : غير ذي ماء ، على ما كانت عليه حال
 الوادي عند ذلك . قال ابن عطية : وقد يقال إن انتفاء كونه ذا زرع مستلزم لانتفاء الماء
 الذي لا يمكن أن يوجد زرع إلا حيث وجد الماء ، فنفى ما يتسبب عن الماء وهو الزرع لانتفاء
 سببه وهو الماء . وقال الزمخشري : بواد هو وادي مكة ، غير ذي زرع : لا يكون فيه شيء من
 زرع قط كقوله : { قُرْءَانَاً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج ،
 ما فيه إلا استقامة لا غير انتهى . واستعمل قط وهي ظرف لا يستعمل إلا مع الماضي معمولاً
 لقوله : لا يكون ، وليس هو ماضياً ، وهو مكان أبداً الذي يستعمل مع غير الماضي من
 المستقبلات . والظاهر أن قوله : عند بيتك